اندلاع الثورة التحريرية بمنطقة بمستغانم
(المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة)
وتطورها ما بين 1954- 1956

د/ بليل محمد، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص

إن اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية في الفاتح نوفمبر سنة 1954، شكّل اختراقا أمنيا لحركة التحرر الجزائرية للجدار الأمني، الذي ضربته الحكومة العامة في الجزائر على نشطاء الحركة الوطنية ذات التوجه الاستقلالي، من خلال حملات الاعتقالات وتزوير الانتخابات وكبت الحريات، باعتراف التقارير الأمنية الفرنسية نفسها المخزنة في دور الأرشيف الفرنسية.

و تمكنت قيادة الثورة المنبثقة من شبان المنظمة الخاصة، من إرباك قوات الأمن الفرنسية، بتفجير الثورة عبر كل القطر الوطني في نفس التوقيت، حيث كانت منطقة الظهرة بمستغانم مع هذا الموعد التاريخي الهام، لتعبر عن شمولية الثورة، وكانت الأجهزة الاستعلاماتية الفرنسية تعتقد، أنه يمكنها القضاء على الثورة بالمنطقة ؛ ولكن تجددها بشكل قوي سنة 1956 من خلال إعادة تنظيم مناطق الثورة وهيكلة منطقة مستغانم؛ ضمن المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة، أعاد الحركة الثورية بالمنطقة إلى الواجهة من خلال المعارك الكبرى التي شهدتها المنطقة باعتراف تقارير الدرك والأجهزة الأمنية، التي كانت تتابع الوضع يوميا وترسل التقارير بشكل مفصل إلى مسؤوليها، وبذلك أضحت منطقة الظهرة تشكل إحدى الجهات الثورية القوية إلى جانب الونشريس وجرجرة والأوراس وغيرها من مناطق الوطن التي أشعلت فتيل الثورة تجاه فرنسا الاستعمارية .

Abstract

The outbreak of the Algerian liberation revolution in November 1954 represented a security breach for the Algerian liberation movement of the security wall, which was struck by the Algerian government against activists of the independent national movement through arrests, electoral fraud and suppression of freedoms. Stored in the depot of the French archive.

The revolutionary leadership of the youth of the Special Organization was able to confuse the French security forces by blowing up the revolution throughout the entire national territory at the same time. The area of the Dhahra in Mostaganem, with this important historical date, reflected the comprehensiveness of the revolution. It could eliminate the revolution in the region; but it was strongly renewed in 1956 by reorganizing the regions of the revolution and structuring the Mostaganem area; within the fourth zone of the fifth state, the revolutionary movement in the region brought back to the fore through the major battles in the region, The security forces, which were following the situation daily and reporting

in detail to their officials, thus became the Dhahra region is one of the strong revolutionary fronts along with Ouarsenis and Djurdjura, Aures, and other areas of the country that sparked the revolution against colonial France.

مقدمة:

عرفت الجزائر أوضاعا مأسوية في شتى الميادين عقب الحرب العالمية الثانية،التي دفع فيها الجزائريون أرواحهم في سبيل تحرير فرنسا من النازية، ولكن فرنسا لم تحاول أن تعترف بحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، حيث عرفت الساحة الوطنية عقما سياسيا بسبب انشغال الأحزاب الجزائرية في ترتيب بيتها الداخلي بهدف التموقع الشعبي.

وكانت أبرز تلك الأحزاب التي مثلت التيار الاستقلالي،ممثلة في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية التي شهدت صراعا داخليا بين أنصار رئيس الحركة "مصالي الحاج"والمجلس الوطني للحركة (المركزيين)، بينما ظلّت نخبة من شباب المنظمة الخاصة التي تأسست سنة 1947 تنتظر إعادة هيكلة الحزب، لكن ذلك لم يجد نفعا، فتحرك هؤلاء الشباب من مختلف مناطق الوطن جماعيا لمباشرة الضغط على الأطراف المتصارعة. لكن اكتشاف المنظمة الخاصة ومحاولة تفكيكها، دفع قيادة المنظمة إلى السباق مع الزمن لتفجير الثورة عبر التراب الوطني، غير أن عمالة وهران ظلّت تفتقر للكوادر ونقص المعدات والأسلحة وصعوبات أخرى؛ لكنها كانت مع موعد اندلاع الثورة المسلحة.

فما هي إرهاصات العمل المسلح بعمالة وهران؟ وفي ما ذا تمثلت صعوبات العمل المسلح للأفواج الأولى، خاصة بمنطقة الظهرة ؟ وما هي الإمكانات التي راهنت عليها قيادة الثورة بالمنطقة؟ وكيف تجاوزت المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة هذه الصعوبات ؟و كيف تطورت الثورة بمنطقة الظهرة بعد 1954؟و ماهي أهم المعارك الكبرى التي شهدتها هذه منطقة في سنة 1956؟

1- ظروف اندلاع الثورة التحريرية بمنطقة الظهرة والصعوبات التي واجهتها

إن عمالة وهران كانت تعاني من انقسامات داخلية بين أنصار الزعيم "مصالي الحاج" الذي كان لأنصاره تواجدا قويا في المدن الكبرى مثل تلمسان و وهران ومستغانم وسيدي بعباس وتيارت وغيرها من البلدات الأخرى، في حين أصرّ بعض أعضاء اللجنة المركزية بالوقوف إلى جانب قيادتهم "عبد الرحمان كيوان ولحول حسين"، وفي اتجاه أخر ظلّ العديد من الشباب المتحمس، حائرا ينتظر الأوامر من قيادته المباشرة للانطلاق نحو العمل الثوري.و في هذه الظروف الحساسة، قامت اللجنة التحضيرية لأول نوفمبر بعمل جاد بالمنطقة بتكوين قيادة أركان مصغرة وكسب انخراط أعضاء جدد والتمويل بالأسلحة، حيث تمّ تكليف ثلاثة قادة رئيسيين وهم "العربي بن مهيدي "بوهران وعبدالحفيظ بوصوف "بتلمسان و"بن عبد المالك رمضان" بمستغانم بهذه المهام(1).

و كان لكل قائد مجموعة خاصة به من القيادات الصغرى المتمثلة في "الحاج بن علا" و'أحمد زبانة" بوهران وسدي بلعباس، و تمّ تكليف "فرطاس محمد" العائد من باريس بعين تموشنت، برفقة بعض

المناضلين أبرزهم "كويني" والاخوة "برجي اعمر وقدور"في ناحية "ويليس بحجاج و"صحراوي عبد القادر"وبومهدي الزروقي"وبلحميتي محمد المدعو بن ذهيبة' في "كساني"(سيدي علي) حاليا [2]؛دون أن ننسى المناضلين الآخرين من الدرجة الثانية في قيادة الثورة.

و قامت قيادة الأركان بالولاية الخامسة برئاسة العربي بن مهيدي إلى تقسيم الولاية إلى خمسة مناطق عسكرية من الحدود المغربية إلى حدود دائرة الأصنام سابقا ثم إلى ثمانية مناطق بعد سنة 1956. والتحضير الجيد لخوض معركة أول نوفمبر والاستعداد الفعال لكي تكون المنطقة مع الحدث البارز وإسماع الآخرين بوجود جزائريين رافضيين للاستعمار، رغم قلّتهم في المنطقة نظرا لعوامل عديدة سنرجع لها لاحقا.

2-العماليات الأولى لفاتح نوفمبر بمنطقة الظهرة.

عرفت منطقة الظهرة بدائرة مستغانم سابقا، نشاطا ثوريا وفدائيا هاما، أنقذ شمولية الثورة حسب تقديرنا، لأن عمالة وهران، كان بها عدد كبير من المعمرين وكانت جد هادئة، بسبب الانقسام الحاد بحركة الانتصار للحريات الديمقراطية وسيطرة أنصار رئيس الحركة على جلّ مكاتبها، وكذا تضاريسها المفتوحة، مقارنة بباقي جهات الوطن، حيث أحدثت صدمة لدى أجهزة الاستعلامات الفرنسية، التي لم تتمكن من إفشال مخطط تفجير الثورة المسلحة، ويرجع الفضل في رأيينا إلى عناصر المنظمة الخاصة، الذين التزموا بالحياد بين الطرفين المتصارعين، ولكنهم في نفس الوقت كانوا في موعد مع هذا الحدث الهام في تفجير الثورة المسلحة بالغرب الوهراني رغم الصعوبات والتحديات .

أ- طبيعته العمليات العسكرية الأولى

سبق لنا ذكر التحضيرات العامة لثورة أول نوفمبر في الجزائر وعمالة وهران من خلال العديد من الدراسات ومصادر معاصرة لتلك الفترة[3]،بأن المنطقة الخامسة، لم تتخلف عن إطلاق الرصاصات الأولى في الفاتح نوفمبر، بل اضطر مجاهدو هذه المنطقة في ناحية الظهرة إلى إطلاق النار في اليوم الموعود وفي نفس الظروف العامة التي شهدتها الثورة، قبل منتصف ليلة الفاتح نوفمبر من سنة 1954. ذلك ما أوردته الجرائد الاستعمارية في الجزائر والمتربول الصادرة يوم الثاني من نوفمبر مثل "إيكو دورون Echo D'Oran "و"ايكو دالجي"Echo D'Algerبحدوث تفجيرات إرهابية من "فيليب فيل " Philipe villeشرقا إلى كساني" Cassaigne غربا[4].

وتم تأكيد ذلك أيضا من خلال شهادة المجاهدين الأحياء والمتوفين منهم في عدّة مناسبات إحياء ذكرى أول نوفمبر [5]. وتناولت أيضا دراسات تاريخية و جرائد وطنية، حدث انطلاق العمليات الأولى بشكل مفصل، مستشهدة بالأرشيف الحي للمجاهدين ووسائل الإعلام التابعة لجبهة التحرير الوطني من خلال البيانات والمنشورات[6] .

وسنتطرق لطبيعة العمليات الأولى وأهميتها في المنطقة، من خلال التقارير الأمنية وتحليلات صحافة المعمرين وشهادة المجاهدين الأحياء،و من هذا المنطلق فالمنطقة، عرفت تحضيرا جيدا لهذا اليوم

المشهود ؛ رغم قلّة الإمكانات اللوجستيكية والبشرية،حيث لم يتجاوز عدد المجاهدين الأوائل عن الستين مجاهد، وعدد قليل منهم بالظهرة، لكن النشاط الدءوب للعربي بن مهيدي في جولاته المراطونية بالاجتماع مع القيادات المحلية بوهران وبالظهرة، أفلحت في تحديد الساعة والمكان .فالعمليات الأولى حددت بدقة وعناية حسب الإمكانات المتاحة، وترك العمل مفتوحا للقيادات المحلية حسب ظروف نشاطها وتحركها الميداني ؛ منها حرق مزارع المعمرين ومحطات البنزين ومهاجمة الثكنات العسكرية ومخافر الدرك الفرنسي وجمع الأسلحة، دون المساس بالمدنيين في المرحلة الأولى .

- أمّا بمنطقة الظهرة بمستغانم، فكلّفت عدّة مجموعات محلية بقيادة أحد قادة أركان الناحية وعضو مجموعة 22 التاريخية، للقيام بعمليات ثورية بالقسم الشرقي لدائرة مستغانم بالبلدية المختلطة ب""كساني"(سيدي علي حاليا) وبالبلدية كاملة الصلاحيات بوسكي (حجاج حاليا). وتمّ تأكيد نجاح بعض العمليات الثورية بناحية الظهرة من قبل والي عمالة وهران السيد"جين لومبار" "Lambert"الذي تلقى مكالمة هاتفية من طرف نائب الوالي لدائرة مستغانم على الساعة الواحدة وأربعين دقيقة صبيحة عيد كل القدسيين المصادف للفاتح نوفمبر بأنه تمّ وقوع الأحداث الآتية(7): - حرق مزرعتين للمعمرين.- مهاجمة مخفر درك "كساني". - مقتل أوربي واحد.

و يؤكد تقرير استعلاماتي فرنسي أخر خاص بالعمليات العسكرية بالظهرة ما يلي(8) :

- تم قتل المعمر فرنسوا لورانت François laurent وقطع خطوط الهاتف والاعتداء على مزارع الكولون منها مزرعة "موسينقو " monsongo و" جونسون"jonsonفي الفاتح نوفمبر أما ما بين 03 و04 نوفمبر تم القبض على 12 فرد من بين 27 المشكلين لعصابة "كساني "من بينهم قاتل فرانسوا لورانت أما ليلة 04 نوفمبر والخامس منه تم محاصرة ستة ثوار بغابة واد النهيب بين لاباسي(سيدي لخضر حاليا) Lapasset وبيكار (خضراء)picardحيث قاموا بإطلاق النار على موكب من الدرك المتنقل وتم في هذه العملية قتل "سي عبد الله" الملقب ب " بن عبد المالك رمضان" وجرح آخر وهروب البقية وفي ستة نوفمبر تم القبض على الرئيس التاريخي لبن عبد المالك رمضان المدعو ب " بشلغام بن عبد الله ولد قدور المعروف ب"بكتروسي" "و في 07 نوفمبر انتهت العملية العسكرية بتحييد 27 ثائر، حيث قتل أحدهم وجرح آخر والقبض على أربعة منهم.

و قد ألقى الحاكم العام للجزائر خطابا أمام الجمعية الجزائرية يوم 11/16/ 1954، تحدث عن الأحداث المؤلمة التي حدثت بالجزائر ليلة 31 أكتوبر وصبيحة 01 نوفمبر 54 قائلا : "بأن الجرائد قد ذكرت جميع هذه الأحداث، وأنني سأسعى للقضاء على هذه الحركة التمردية من أجل فرنسا وإرجاع الأمن للجزائر وقررت الحكومة الفرنسية إرسال المزيد من القوات العسكرية خاصة المضليين لاسترجاع الأمن على الحدود الجزائرية التونسية ومنطقة الأوراس والاعتماد على الروح المدنية للسكان" .و أضاف روجي ليونار، "بإنني أخاطب هذه القاعة،موضحا لكم بأن أحداث الزلزال أضيفت لهذه الأحداث(9) "، مما يجعلنا نعتقد أن الثورة التحريرية شكلت زلزالا عنيفا بالنسبة للحكومة العامة التي كانت تطمأن نظيرتها

بباريس، ولكنها في حقيقة الأمر فشلت في تحقيق الاصلاحات التي وعدت بها السكان المسلمين ورضخت للوبي الاستيطاني .

و لهذا الأمر طالبت الحكومة الفرنسية، الهيئة التنفيذية في الجزائر باتخاذ الاجراءات السريعة للسيطرة على الوضع وتطبيق القانون على الجميع وأن الرابطة ستبقى مع المتروبول، أما فوجور:vanjour المكلف بالآمن، فقد ذكر في خطابه أمام نفس الجمعية، بأن الوضع الأمني تحت السيطرة من خلال تقارير رؤساء المصالح الأمنية بالعمالات الثلاثة وقدم حصيلة العمليات الارهابية ليلة عيد القدسيين بأنها وقعت بمناطق مختلفة ب[10] :

-الأوراس والمدن الثلاثة المحيطة بها (بسكرة وخنشلة وباتنة) وبالقطاع الجزائري وبلاد القبائل وممنطقة الظهرة وتورغوTurgo، حيث شملت العمليات مهاجمة مخافر الشرطة والدرك وقطع خطوط الهاتف والواصلات، وحسب وجهة نظره فإن جهاز الاستعلامات كان على علم بنشاط وتحركات هذه الجماعات ولكنه لم يستطع رصد والتنبؤ بيوم هذه العمليات، لأن نداء بداية العمليات الثورية حسب اعتقاده حدد للقاعدة (الثوار) إلا في يوم الأحد 31 أكتوبر وبعض المجموعات قدم لها على الساعة 16سا من هذا التاريخ ومجموعات أخرى لم تعرف خبر بداية العمل الثوري إلا ليلا وذلك من خلال عمليات استنطاق المقبوض عليهم، وتطرق أيضا إلى كيفية صنع القنابل من قبل هذه المجموعات وشراء الأسلحة، وقدم معلومات مفصلة عن الثوار وعن نشاط أجهزته الأمنية، لتبرئتها من التقاعس وفصلّ في النظام المحكم للجماعات الثورية التي تتكون من 4 إلى 5 أفراد وأضاف قائلا، فمهما قبضنا على أحدهم فلا يمكنه معرفة المجموعات الأخرى، و بسبب وجود مجموعات من الأفراد تعمل في السرية منذ مدة ؛و تحدث أيضا عن الاعتقالات في صفوف المتمردين. أما بالنسبة لمنطقة "كساني" و"وليس" و"بوسكي" بالغرب الوهراني، فذكر بأن الحصيلة، تمثلت في القبض على 96 فرد وثلاثة قتلى وثلاثة جرحى، بينما تسعة أفراد لا زالوا فارين ؛ حسب نفس التقرير الأرشيفي سابق ذكره.

وحسب روايات المجاهدين الأحياء، بأن العمليات الثورية كانت جدّ ناجحة بالمنطقة نظرا لإشراف"بن مهيدي" نفسه في تحضير الثورة بالظهرة مع "بن عبد المالك رمضان" في اجتماع ضمّ القيادات المحلية أمثال "الأخوين بورجي"و"بلحميتي بن ذهيبة" وآخرين بغار"سدي يوسف ببلدة "أولاد بوزيان" بكساني، حيث تمّ توزيع المهام في جمع الأموال وشراء الأسلحة والتدريب عليها [11] .

إضافة إلى هذا النجاح الذي أحرزت عليه الثورة في الولاية الخامسة، كانت تعرف بهدوئها وسيطرة المعمرين على أوضاعها، وانشغال الأهالي الجزائريين في العمل عندهم، حيث أثار انتباهنا لحادث مميز بإطلاق النار على أحد المستوطنين على الساعة الحادية عشر وخمسة وأربعين دقيقة، وفي روايات أخرى 11سا و30 دقيقة، ويعود سبب ذلك حسب هذه الروايات،بأن ذلك المستوطن شاهد المجاهدين متجهين نحو المزرعة، فحاول الإعلام عنهم فاضطرت المجموعة إلى إطلاق النار عليه ومتابعة إنجاز

مهام إعطاب المولد الكهربائي "بوليس"(بن عبد المالك رمضان حاليا) وحرق بعض مزارع لمستوطنين ومحاصيلهم الزراعية[12].

وقد اطلعنا بمركز الأرشيف لإكس بروفانس عل وثيقة هامة، توضح بشكل مفصل ملابسات أحداث ليلة أول نوفمبر من خلال مراسلة استعجاليه حول المقبوض عليهم بمنطقة **كساني** خلال هذه الأحداث من قبل المحافظ " موريس بيار "رئيس الشرطة العامة لمستغانم أرسله لعامل العمالة والجهات الأمنية العليا للحكومة العامة في الجزائر يوم 1954/12/31 أبرز فيه الأحداث الآتية[13]:

- هجوم كساني ليلة 10/31و 1954/11/01:تمثل في قطع خطوط الهاتف بين طريق كساني ولاباسي واغتيال السيد فرانسوا لورانت، و مهاجمة ثكنة الدرك بكساني والتعدي على الحارس الليلي "سايح محمد" الذي جرح بطلقة نارية وأيضا مهاجمة عدة مزارع سبق لنا ذكرها وأن عموم المهاجمين تم توقيفهم، حوالي 27 فرد وتم ذكر أسمائهم بالتفصيل في هذه المراسلة.

ب- الصعوبات التي واجهت العمليات الثورية الأولى بالمنطقة الخامسة ومنطقة الظهرة

إنّ تتبعنا لأحداث العمليات الأولى بالمنطقة، تبين لنا أنّ حركة التمرد حسب التعبير الاستعماري، استطاعت اختراق الإجراءات الأمنية الفرنسية وقوانينها الردعية المسلطة على الجزائريين، والتجاوب مع الوضع العام لحركة الثورة في مسارها التاريخي الذي ضبط بيوم 01 نوفمبر 1954م، حيث أصبحت الجرائد الاستعمارية المحلية والباريسية، الصادرة يوم الاثنين واليوم الثاني منه بالهلع والذهول لمجرى العمليات، واتساع نطاقها من خلال ما ورد في البرقيات الرسمية للحاكم العام. وراحت تحلل الأوضاع من وجهات مختلفة، موضحة للرأي العام، ميزان القوى بين الجيش الفرنسي وسيطرة الإدارة الاستعمارية على السكان وتوجيهها لهم من جهة؛و مجموعة قليلة من الخارجين عن القانون من جهة ثانية، ومن هذا المنطلق:" فإنّ الثورة بالمنطقة الخامسة، قد وجهتها عدّة صعوبات، فرغم انطلاقة الثورة الجيدة وانخراط الآلاف فيها،فإن هذا العدد لا يمثل أكثر من حفنة من الرجال إذا ما تمت مقارنتهم بعدد خصومهم،وما يتوفر لهؤلاء الخصوم من إمكانيات"[14].

ويعود ذلك في نظرنا إلى طبيعة الثورة، التي اعتمدت على قلة من المناضلين الأوائل بسبب الأزمة التي أصابت"حركة انتصار للحريات الديمقراطية" بمنطقة الغرب الجزائري، بسبب سيطرة الطرفين المتصارعين على مكاتب الحزب، حيث آخر ذلك في نظرنا النشاط الثوري بالمنطقة، خاصة بعد اعتقال بعض زعماء المنظمة الخاصة أمثال "أحمد بن بلة"و" بوشعيب" على إثر الهجوم على بريد وهران، ووجود "حمو بوتليليس" في السجن ؛ في حين خرج "زبانة " متأخرا من السجن إلاّ في سنة 1953م.

تبين لنا هذه الوقائع التاريخية، قلة الرجال الممارسين للعمل الثوري في بداية الثورة، مما أدى بقيادة الثورة المنبثقة عن اجتماع جوان 1954م إلى تبني إستراتيجية تعويض هذا النقص بتكليف قادة تاريخيين بارزين مسؤولين على المنطقة الخامسة وهم"العربي بن مهيدي" قائدا و"عبد الحفيظ بوصوف 'بتليمسان و'بن عبد المالك رمضان "بمستغانم نائبين له .

وأن أسباب قلة العمل الثوري وضعفه في بداية الثورة، برجع في نظرنا إلى اكتشاف المنظمة الخاصة و تسليط العقوبات الصارمة على أعضائها من قبل الإدارة الاستعمارية،المتمثلة في سجن العديد منهم ؛ وظلّ آخرون يعملون في السرية بعدين عن أنظار الاستعلامات الفرنسية،ومن جهة أخرى، سيطرة الإدارة الاستعمارية على السكان الجزائريين، لتواجد بلديات كاملة الصلاحيات التي يرأسها رئيس بلدية أوربي، مستغلة الجزائريين بشكل فادح،ومطبقة عليهم قوانين صارمة،رغم انتهاء العمل بقانون الأنديجانا سنة 1944م؛و بلديات مختلطة يرأسها حاكم إداري،كان يرهب السكان من خلال الجهاز الإداري والأمني التابع له من حراس البلدية والقياد بالأرياف وجهاز أمني من شرطة ودرك في البلديات، ومن بين الأمثلة على هذا الوضع، تواجد حاكم بلدي يدعى **"شوارا"** بالبلدية المختلطة **كساني** الذي كان يرهب السكان ويقدم قوائم عن أسماء المناضلين بالأحزاب الوطنية لأجهزة الاستعلامات الفرنسية، حسب شهادة أحد الجزائريين المعاصرين لهذه الفترة [15]، بوجود جهاز استعلاماتي قوي، حيث كان لممثل الإدارة الاستعمارية أعين لها في كل مكان[16].

وواجهت الثورة أيضا بالمنطقة صعوبات لوجيستيكية، منها نقص الإمداد بالأسلحة، وذلك بسبب المراقبة الصارمة للحدود الشرقية والغربية؛بعد اكتشاف أعضاء من المنظمة الخاصة،و تلكؤ الإخوة المغاربة في إمداد بوصوف والعربي بن مهيدي بالأسلحة التي وعدوا بها [17]، أدى ذلك بالوحدات الثورية في المنطقة إلى الاعتماد على النفس، حيث اعتمدت مجموعات الظهرة بمستغانم على صناعة البارود وتحضير القنابل بواسطة أنابيب الماء، وجمع بعض الأسلحة عن طريق الشراء مثل بنادق موزار وبنادق صيد إيطالية الصنع وبعض المسدسات [18].

يدل ذلك في نظرنا على صعوبة التمويل بالأسلحة، والتقليل من حظوظ نجاح العمليات المبرمجة، يضاف إلى ذلك انفتاح المنطقة جغرافيا، رغم تواجد بعض الغابات والجبال والأودية التي كانت درعا واقيا لمجاهدي المنطقة. ولكن تواجد أراضي زراعية واسعة وثروات منجميه متنوعة، سمح بتوظيف يد عاملة جزائرية وتحسين بعض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، مما أدى إلى صعوبة اختراق القيادات الثورية الأولى للجزائريين المنشغلين بشؤون حياتهم، أو هؤلاء المنغمسين في العمل السياسي العقيم.

ورغم صعوبة هذه الظروف، فإن عمالة وهران قد شهدت أعمالا ثورية ذات قيمة معنوية ونفسية بالنسبة لعموم مناطق الوطن،و أذهلت القيادة الإدارية الحاكمة في الجزائر من حاكم عام ووالي الولاية ونوابه بدوائر العمالة، حيث قام رئيس جهازها التنفيذي المتمثل في الحاكم العام إلى إعطاء تعليمات صارمة لمنع تعاظم الثورة وطمأنة السكان الجزائريين والتقرب منهم محاولا بذلك عزل الثورة عن العمق الشعبي[19]، و يدل هذا الاهتمام الحكومي في إصراره على قمع حركة التمرد بالقطاع الوهراني ومنطقة الظهرة على وجه الخصوص، على نجاح العمليات الثورية الأولى والتنسيق الجيد الذي كان

موجودا بين قيادات الثورة عبر الجزائر كلها من جهة والرد على بعض الدراسات والتقارير التي تحدثت عن تأخر العمليات الثورية بمنطقة وهران من جهة أخرى [20].

ونشرت هذه الإشاعات أجهزة الاستعلامات الفرنسية، للتقليل من شمولية الثورة واعتبارها مجرد أعمال إرهابية متفرقة، قامت بها مجموعات خارجة عن القانون، ولكن رد الفعل الفرنسي تجاه الجزائريين بالمنطقة، من خلال بيانات الإدارة الاستعمارية وأرشيف المجاهدين الأحياء يثبت لنا عكس ذلك .

3- رد الفعل الفرنسي على العمليات الثورية الأولى بالعمالة ومنطقة الظهرة

كانت العمليات الثورية الأولى زهيدة بالمنطقة الخامسة" وهران"، حسب العديد من الدراسات لعوامل عديدة سبق التطرق لبعضها، ولكن قوة رد الفعل الفرنسي على العمليات الأولى برهن لنا انتشار لهيب الثورة بشكل مباشر وألحق خسائر بشرية ومادية في صفوف القوات الاستعمارية، دفع ذلك أجهزة الاستعلامات الاستعمارية إلى شن حملة مداهمة لمعظم العناصر المنتمية لحركة الانتصار واعتقالهم . وفي مرحلة لاحقة، تمكنت هذه الأجهزة من إبطال مفعول انفجار القنابل بالعديد من مناطق المنطقة الخامسة، وتمّ القبض على معظم المنفذين للعمليات الأولى، ففي ناحية الظهرة استشهد "ابن عبد المالك رمضان " يوم 04 نوفمبر 1954م، وقبض على المجاهدين الآخرين وسجنوا في العديد من سجون مستغانم ووهران والبرواقية [21]، وفي نفس الوقت ذكر المرحوم المجاهد (بومهدي زروقي) أحد الأعضاء القياديين في الهجوم على مراكز الاستعمار ليلة الفاتح نوفمبر في ندوة تاريخية، بأن جهاز الاستعلامات الفرنسي عند استنطاقه له ولزملائه ؛ لم يتعرف على هوية المجموعات المنفذة، واعتقد أنها تنتمي إلى حركة الانتصار وأضاف المجاهد قائلا "بأنني حمدت الله على ذلك " وهو يسمع هذا الحديث من أحد المحققين من زنزانته [22].

و تحت وطأة العمليات الكبرى في منطقة وهران والظهرة، سارعت الإدارة الاستعمارية إلى تبني إجراءات صارمة في حق مناضلي التيار الثوري، حسب إحدى النشريات الصادرة في شهر نوفمبر والتي ذكرت بأن قيام فرنسا بإصدار "**قانون** 1954/11/05 الصادر بالجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية القاضي بحلّ حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، كان سببا كافيا لإعادة هذه الحركة للسرية وقيام البوليس الفرنسي في إطار عملية "بيش" putch باعتقال ألاف مناضلي هذه الحركة فأوجد تعاطف شعبي معها"و أدى إلى التحاق الآلاف بالجبال خوفا من سياسة البطش الاستعمارية وبالتالي فإجراءات الإدارة الاستعمارية أججت الأوضاع وجعلت الشعب الجزائري يلتف حول الثورة بشكل فعال، و علقت هذه النشرية على هذه الأحداث من خلال مقولة السيد "بياكس " piex :"لا يمكن تثبيت الأمن في وسط غابة من الحراب baïonnettes و لكن وفق إرساء مبدأ الثقة والصداقة بين الشعوب وإن إرساء مناخ السلم، لا يمكن أن يكون وفق عنف أعمى ولكن وفق سياسة شعبية بناءة تبعا لقاعدة شعبية جزائرية حقيقية " [23].

وقد أوجدت هذه الأوضاع حالة نفسية متباينة بين السكان الأوربيتين والمسلمين الجزائريين الأوربيين بمنطقة الظهرة من خلال تقارير الأجهزة الأمنية، التي حللت هذه الأوضاع من خلال تعليقات صحف المعمرين، نقتبس منها حالتين كالآتي[24]:

- أولا :" تناولت صحف المعمرين الصادرة خلال هذه الأحداث، رضاها من سكان المنطقة المسلمين المتعاونين مع السلطات الأمنية بتتبع آثار الخارجين عن القانون وبالتالي فهم مرتاحون لذلك "،و لكنها أغفلت في نظرنا الحس الوطني المنتشر بمنطقة الظهرة من خلال تعاون سكان المنطقة مع المجاهدين بتنفيذ عملياتهم بنجاح، وأن الأشخاص التي تحدثت عنهم هذه التقارير الصحفية، لا تعكس عموم سكان المنطقة، إنما بعض الأفراد المنتفعين من خدمات الإدارة الاستعمارية، وتبين لنا هذه الأحداث فشل جهاز الاستعلامات الفرنسي في معرفة نفسية السكان الجزائريين.

- ثانيا :تناولت أيضا، تصريحات بعض الاوربيين في كيفية مكافئة المتعاونين معهم ماديا بتقديم مائة ألف فرنك لكل واحد، و هذه هي طبيعة الخائنين لوطنهم أو بواسطة تهنئتهم من قبل الحكومة العامة، ولقد أمضى هذا التقرير المرسل إلى السلطات العليا، المحافظ الرئيسي السيد "فريدي روني " Fredy René".

و بذلك فالإدارة الاستعمارية استخدمت جميع الأساليب القمعية واستعانت بالأجهزة الأمنية المختلفة لقهر الشعب الجزائري وحاولت عزله عن ثورته المباركة، من خلال عمليات الاعتقال التي تحدثت عنها التقارير الاستعمارية السابق ذكرها، وأوجدت جوا من الرعب في أوساط السكان الجزائريين، وحاولت أن تظهر لهم قوة فرنسا، مما جعلها تتحكم مؤقتا على ميدان المعركة بعد الشهور الأولى من اندلاع الثورة التحريرية .

4 - تطور الثورة بعد سنة 1954 بالمنطقة

قامت الإدارة الاستعمارية من خلال أجهزتها الأمنية بعمليات الاعتقالات وترهيب السكان ووضع مخافر أمنية جديدة وبناء معتقلات وأحياء للعسكريين الفرنسيين وتجنيد بعض المرتزقة والمتعاونين من السكان المسلمين الجزائريين والاعتماد عليهم في محاربة الخارجين عن القانون، حسب تصريحات أجهزة الاستعلامات الفرنسية[25] .

إضافة لذلك عدم اكتشاف العديد من العمليات، بسبب السرية التامة التي دخل فيها من تبقى خارج نطاق المراقبة الأمنية وبداية التنظيم الخفي، بعيدا عن أنظار أجهزة الاستعلامات وتأسيس الخلايا الشعبية والمراكز الآمنة وانتظار أوامر القيادة العليا للثورة التي تشتت بعض الشيء، بسبب استشهاد بعض قادة مجموعة الاثنان والعشرين، منهم بن عبد المالك رمضان وسجن كل المشتبهين فيهم، ولكن قيادة الثورة أعطت الأوامر للمتواجدين في المنطقة بالقيام ببعض الأعمال مثل حرق مزارع المعمرين وتنصيب الكمائن دون الدخول في مواجهات مباشرة مع الشرطة الريفية وقياد الحاكم المحلي للبلدية المختلطة، بسبب قلة الإمكانيات، ذلك ما تحدثت عنه "إكو دورون" عن حرق مزارع في الجهة

الشمالية الشرقية من البلدية المختلطة بمنطقة بيكار [26]، دعوة المناضلين إلى العمل على انخراط أفراد الشعب في الثورة من خلال تأسيس منضمات شعبية شبه مسلحة، تحضيرا للمعركة الطويلة الي بدأت بعد انعقاد مؤتمر الصومام بإعادة هيكلة الثورة ة والتعامل مع المستجدات الطارئة.

5 - تجدد الثورة بعد مؤتمر الصومام

تشكلت النواة الأولى لجيش التحرير الوطني من المناضلين المنتسبين سابقا لحزب الشعب الجزائري والمنظمة الخاصة التي تأسست في فبراير 1947، وبعد تقوية الثورة وتزايد عدد الملتحقين بها، تم فرض شروط انضباطية على المنخرطين الجدد بقبول المجندين العسكريين والفدائيين والمناضلين المخلصين، حيث شكلت جبهة التحرير الوطني القائدة للكفاح المسلح خلايا شعبية بالدواوير والأرياف[27]، عرفت لدى أجهزة الاستعلامات بالأوبا OPA[28]. وحسب دراسة للدكتور الغربي غالي أن جيش التحرير الوطني، كان يتكون في بادئ الأمر من الفئات الآتية [29]:

"- المجاهدون، منظمون عسكريا ولهم مستوى قتالي وو تكوين ثقافي وسياسي

- المسبلون، و هم أفراد مسلحون يتميزون بارتدائهم للباس المدني غير خاضعين للقوانين التنظيمية

- الفدائيون، شبان من ذوي الإيمان الراسخ بالثورة والتضحية في سبيل الوطن، من أهدافهم : تصفية غلاة المعمرين وبث الرعب وعدم الاطمئنان في نفوس الفرنسيين، وذكرت التقارير الأمنية الفرنسية بأن عددهم ب 22126 فرد، في حين ذكرت تقارير جيش التحرير ب 100000 فرد" .

بعد انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، أعيد تنظيم الثورة وبعث إنشاء كتائب ومجموعات لجيش التحرير بمعظم مناطق البلاد، ومنها المنطقة الرابعة بالولاية الخامسة، حيث كانت مجموعات من جيش التحرير موجودة بالمناطق الجبلية، و حسب جهاز الاستعلامات الفرنسي، بأنه كان لها تأثير واضح على السكان، مما جعل حركة التمرد حسب مصطلح هذه الأجهزة يزداد ويدعم بمنخرطين جدد وإقامة مراكز بعيدة عن أعين الجيش الفرنسي [30].

بعد أن تواجد جيش التحرير بشكل فعال بالمنطقة من خلال شهادات مجاهدي المنطقة، وأكدت الوثائق الأرشيفية حقائق الميدان من كمائن واشتباكات وهجمات لجيش التحرير على القوات الفرنسية، بدأت كتائب جيش التحرير تستخدم أساليب قتالية واستراتيجية عسكرية تناسب وضع تواجدها بالمنطقة، فمن خلال شهادة المجاهدين، بأن مراكز جيش التحرير كانت متنقلة وبإعداد قليلة للفوج الواحد، حتى لا تستطيع قوات الاحتلال اكتشافها، وقامت باستخدام أسليب عديدة منها [31]:

- أسلوب حرب العصابات، ولاحظنا ذلك في العمليات السابقة، نتيجة التنوع التضاريسي والطبوغرافي

– الاشتباكات والهجمات الخاطفة المحدودة الزمان والمكان على مراكز عسكرية ثابتة ومتنقلة .

- تخريب منشآت العدو من مزارع ومصانع وطرق السكة الحديدية وكل المصالح التي ينتفع بها الجيش الفرنسي .

- نصب الكمائن المختلفة .

ولهذه الغاية قامت الولاية الخامسة بالمنطقة الرابعة بمحاولات لإعادة هيكلة الثورة بها، وذلك بالتنسيق بالمناطق الأخرى من الولاية الخامسة، من بينها المنطقتين الأولى باعتبارها منطقة حدودية يسهل نفاذ الذخيرة منها، وأيضا المنطقة السابعة بتيارت وما جاورها، حيث لاحظنا تواجد تنسيق ما بينهما من خلال اطلاعنا على الوثائق الأرشيفية الخاصة بدائرة تيارت[32]، وهذا ما جعل القيادة العليا للولاية الخامسة ترسل كتائب قتالية لتنظيم المنطقة، من بينها كتيبة **الشهيد محمد الجبلي** .

أ – معركة سيدي الزقاي بقيادة الشهيد محمد الجبلي: 15- 16 سبتمبر 1956 بسيدي علي (كساني سابقا)

بعد أن استطاعت قيادة الثورة المتبقية من بعض أعضاء المجموعة الاثنان والعشرين والتحاق مناضلين سابقين من اللجنة المركزية وفتح المجال لمناضلين آخرين من الأحزاب الوطنية بالانخراط في صفوف جبهة التحرير الوطني فرادا،ازدادت الثورة متانة وتنظيما وأعيد هيكلة بعض المناطق المتضررة من الضربات الأولى للجيش الاستعماري لخلايا جيش التحرير الوطني وتنظيم صفوف المنخرطين الجدد .

ولهذا الأمر كان تنظيم الولاية الخامسة الشاسعة المساحة أمرا هاما، باعتبار أن لها عمقا جغرافيا مع المغرب الشقيق ومع الولايتين التاريخيتين الرابعة والسادسة المنشأة حديثا بالصحراء، وتم تقسيمها إلى ثمانية مناطق وكل منطقة إلى نواحي وكل ناحية إلى قسمات، وكان نصيب منطقة الظهرة ضمن المنطقة الرابعة، محاذية لنفس المنطقة بالولاية الرابعة، مما جعلها همزة وصل بين الولايتين الخامسة والرابعة واكتسبت أهمية بالغة في المجال الإستراتيجي والقتالي بسبب طابعها الجبلي .

و احتفظت المنطقة ببعض مراكزها المخصصة لخلايا جيش التحرير الوطني من خلال شهادات مجاهدين ووثائق الاستعلامات الفرنسية [33]،التي ذكرت بوجود خلايا نائمة بوليس وبوسكي والبلدية المختلة " كساني " المترامية الأطراف من جبال تزقايت ومنطقة الشواشي إلى غاية واد كرمس وجبال الظهرة الشرقية بالقطاع الأوسط L’Algérois.

ولهذه الغاية كان تحرك جيش التحرير الوطني بالولاية الخامسة شاقا، بسبب التضاريس المكشوفة في غالب الأحيان، وتمركز عدد كبير من المعمرين وانشغال سكان المنطقة بالعمل في مزارع المعمرين، مما أوجد صعوبة هيكلتها، فتم تكليف بعض القيادات الناشئة بالحدود الغربية والملتحقة بالعمل المسلح إلى المجيء لمنطقة الظهرة للضغط على الجيش الاستعماري وتصفية بعض مسؤولي البلديات المختلطة المتعجرفين، الذي مثلهم الحاكم الإداري للبلدية المختلطة "كساني " المدعو "شوارال Choaral وبعض المتعاونين من موظفي اللإدارة ومنتخبين بهذه البلدية من السكان المسلمين [34] .

وانطلاقا من هذه المعطيات، كلفت الثورة شابا مجاهدا من المنطقة الأولى، بتلمسان للقيام بهذه العملية، والمعروف بمحمد الجبلي، مما يجعلنا نطرح عدة استفسارات عن هذا الموضوع، من هو هذا القائد العسكري ؟ وما هي ظروف مجيئه إلى المنطقة ؟ وما هي مراكز المجاهدين المحلية التي اتصل

بها ؟ والأعمال التي قام بها في طريقه الشاق نحو شرق الولاية الخامسة ؟و كيف نشبت المعركة بين وحدته القتالية والجيش الاستعماري المرابط بالمنطقة ؟ وما هي نتائجها على العمل المسلح بالمنطقة ؟

تعود أصول الشهيد محمد الجبلي إلى منطقة "وارسوس " بدائرة الرمشي بولاية تلمسان وإسمه الحقيقي "بداود محمد "مولود في 12 أبريل من سنة 1931، بقرية الجبالية وانخرط في صفوف جيش التحرير الوطني في أواخر سنة 1955هاربا من الخدمة العسكرية وشارك في معارك جيش التحرير بالمنطقة الحدودية وارتقى إلى قائد إحدى كتائب جيش التحرير الوطني . لذلك استدعته قيادة الولاية الخامسة بمهمة " دورية نحو شرق الولاية " للقيام بمهام تنظيمية سرية للاتصال بالأفواج العسكرية المتبقية منذ أول نوفمبر بمنطقة الظهرة وتحقيق عدة أهداف، منها [(35)]:

- تصفية الحاكم المحلي " شوارال " – ملئ الفراغ بالمنطقة وإعادة هيكلتها بعد استشهاد القادة الأوائل والقبض على معظم مفجري الثورة في الفاتح نوفمبر 1954.

ب – مسيرة محمد الجبلي نحو منطقة الظهرة

تنقل محمد الجبلي مع كتيبة من المجاهدين تتراوح ما بين 80 إلى 100 مجاهد من تلمسان مارا بمنطقة عين تموشنت ومعسكر، حيث قام بحرق العديد من مزارع المعمرين وتخريب ممتلكاتهم، ووصل إلى منطقة مستغانم، حيث تابع سيره في المناطق المحاذية للبحر، فقام بحرق بعض الأكواخ الخشبية للعمال الأسبان وقتل بعض الحراس بمنطقة الصخرة، وتابع سيره بدواوير المزارعة وأولاد يونس والسمارة والسعادية والشواكة بالبلدية الكاملة الصلاحيات " بوسكي " ثم مر بدواري القوايوية والترابة بالبلدية المختلطة "كساني"[(36)]، وذلك بعد ما التقى ببعض المجاهدين بوليس معقل الأخوين برجي (ثوار أول نوفمبر) وببوسكي بأحد مراكز المجاهدين [(37)]، ليصل ليلة 14 سبتمبر لدوار القشاقشة المعروف بالبخيتية للالتقاء ببعض مجاهدي المنطقة الذين كانوا في انتظاره، بعد ما قام بتصفية بعض عملاء فرنسا بالمنطقة وحرق مزرعة " بروتون "breton.

ج- وقائع معركة سيدي الزقاي بالقرب من كساني (سيدي علي) 15– 16 سبتمبر1956

بعدما استطاعت كتيبة الشهيد محمد الجبلي الوصول إلى دوار القشاقشة المعروف بالبخيتية شرق مدينة سيدي علي حاليا ب ثلاثة كلم بالقرب من ضريح الولي الصالح "سيدي الزقاي" أتيا من مزرعة "شعبان"حاليا ومارا على دوار الترابة الجبل، حوالي ثلاثة كلم جنوب سيدي علي، ليلة 14 وصبيحة 15 سبتمبر، للتمركز في المنطقة من أجل إكمال المسيرة نحو شرق العمالة، حيث تعرضت كتيبة المجاهدين لخيانة من قبل أحد حراس مدرسة الدوار، الذي شك في الغرباء، وامتطى درجة هوائية متجها نحو مقر الحاكم العام "شوارال"ليخبر المسؤولين الفرنسيين بوجودهم، وحسب ما نقلت جريدة "إيكو دورون"[(38)]، بأن أحد المسلمين الفرنسيين أبلغ السلطات بالبلدية المختلطة بتواجد عناصر من الفلاقة (الثوار)، حيث قات القوات الفرنسية في صبيحة يوم السبت 1956/10/15بمحاصرة المنطقة وتتبع أثر المجاهدين الذين استعدوا للمعركة الفاصلة بالشهادة أو العيش أحرارا .

وفعلا قد تمسك الشهيد محمد الجبلي، بالتصدي لقوات الجيش الاستعماري، الآتية من كل حدب حسب تصريح نفس الجريدة سابقة الذكر، التي ذكرت تفاصيل المعركة نقلا عن مصادر عسكرية فرنسية موضحة ما يلي [39] :

"قد تم محاصرة الخارجين عن القانون بكساني تحت عنوان "كتيبة كبيرة من المتمردين تشتبك مع الجيش الفرنسي بالقرب من كساني، وأنه تم القضاء على 32 فردا من الخارجين عن القانون "، ووضحت في هذا المقال بأن الفرقة الرابعة للمشاة الآتية من القطاع الأوسط (عمالة الجزائر)شاركت في محاصرتهم إلى جانب قوات آتية من مستغانم، إضافة إلى القوات العسكرية المرابطة بالمنطقة والمعروفة بالمجموعة 31 المتحركة من الشرطة الريفية والتي بادرت بالاشتباك مع مجموعة الثوار وساعد قوات الاحتلال الكلاب المدربة والطيران الحربي الآتي من مطار السانيا والمعروف ب" بيبر بيبس piper – pubs وحسب جهاز الاستعلامات الفرنسي الذي نقلت عنه هذه الجريدة أخبار المعركة،، فإن قوات المجاهدين تراوحت ما بين80 و100 عنصر مدربين على الأسلحة وبلباس عسكري، مما يجعلنا نستخلص تزايد قوة جيش التحرير الوطني الذي قطع أكثر من 300 كلم وصولا إلى منطقة الظهرة دون تفطن جهاز الاستعلامات الفرنسي له، واستطاع محمد الجبلي بصموده ليومين كاملين من التقليل من الخسائر في صفوف جيش التحرير باستشهاده في نفس المكان، رغم الحصيلة الثقيلة التي تجاوزت استشهاد أكثر من 40 فردا من كتيبته أي نصفها، حسب روايات شهود عيان أحياء من مجاهدين ومواطنين عايشوا أحداث المعركة أو سمعوا عنها، فهذا المجاهد "نعماوي بن عبدالله "الذي لا زال يحفظ أشعار عن معركة الجبلي رغم مرضه، وهو المجاهد الذي روى لنا أسطورة هذه المعركة التاريخية الكبرى على مستوى الغرب الجزائري، لأنها جاءت مباشرة بعد هيكلة الثورة، وجند هو نفسه مباشرة بعدها في المنطقة الرابعة بالولاية الرابعة وتعرض لجروح خطيرة أفقدته الوعي مدة أسبوع في وسط جبال الظهرة، ولكن رعاية الله حافظته من السقوط في يد قوات الاحتلال إلى غاية الاستقلال [40]، و روى لنا أحد شهود العيان المتمثل في الحاج لخضر فيزاري من مدينة سيدي علي، و هو أخو الشهيد **فيزاري علي** الذي استشهد بمنطقة مغنية والذي كان ضمن المجموعة الأولى المجندة في صفوف الجيش الاستعماري في الهند الصينية ثم في ثكنة الصبابنة بتلمسان رفقة الرائد " الزوبير 'المدعو "حمايدية الطاهر من منطقة تيارت واللذين شاركا في التمرد على هذه الثكنة والقضاء على الجنود الفرنسيين والالتحاق بصفوف الثورة، وذلك في سياق حديثه عن أصداء معركة سيدي الزقاي وأن مدينة سيدي علي(كساني سابقا) امتلأت على أخرها بالجنود الفرنسيين وسمع دوي الطيران الحربي وحوماته[41] .

وأكدت لنا جريدة "إيكو دورون " هذ الوقائع بذكرها لأدق التفاصيل عن هذه المعركة في عددها الصادر يومي الأحد والأثنين 16 – 17 سبتمبر، بنزول حوامة على أرضية ثكنة "كلونيا" بوسط مدينة مستغانم محملة بالجرحى وقتلى الجنود الفرنسيين، وتأسفت لهذه الأحداث التي ذهب ضحيتها جنود متروبوليين، وفي عدد يوم الأربعاء 19 سبتمبر من نفس السنة، ذكرت وصول جثامين أربعة جنود من

منطقة العمليات بكساني وذكرتهم بأسمائهم وتابعت في عددها ليوم 20/09/ 1956بأن الجيش وسكان مستغانم والسلطات المحلية للبلدية المختلطة بكساني ألقوا النظرة الأخيرة على قتلى هذه العملية يوم 1956/09/18 [(42)].

يجعلنا ذلك نستنتج قوة المعركة التي فاجأت قوات الاحتلال، التي ظلت تظن أن المنطقة باتت آمنة بعد القضاء على المجموعات الأولى لثوار أول نوفمبر، ونتج عن هذه المعركة استشهاد قائد الكتيبة الشهيد " محمد الجبلي "مع مجموعة من رفاقه وفرار بقية المجاهدين نحو شرق المنطقة ليتجدد القتال في هذه المنطقة الثورية الي أبت الاحتلال منذ محرقة غار الفراشيح بأولاد رياح في 18 جوان 1845 بنفس البلدية المختلطة [(43)] وجددت العهد مع الثورة المسلحة حيث ستعرف هذه المنطقة أعنف المعارك بعد هذه المعركة التاريخية.

6 – الحرب النفسية المتبادلة ما بين الجيش الاستعماري وجيش التحرير الوطني بالمنطقة

شهدت منطقة الظهرة بعد هذه المعركة الكبرى في تاريخ المعارك الحربية، بين جيش التحرير الجزائري، المهيكل بعد مؤتمر الصومام وجيش الاحتلال الفرنسي، حربا نفسية وإعلامية بين خلايا جبهة التحرير بالمداشر والقرى والبلديات وتواصل الاشتباكات بين مجموعات صغيرة لجيش التحرير وكتائب الجيش الفرسي المدعومة بالطيران الحربي من جهة ولجان خاصة بالاستعلامات والفرق الإدارية المتخصصة، التي شنت حربا نفسية شرسة على الجزائريين بالمنطقة بهدف عزلهم عن الثورة المسلحة وفرض الخناق على تحركات أفراد جيش التحرير .

أ-أساليب الحرب النفسية لجهاز الاستعلامات الفرنسي

استفادت فرنسا الاستعمارية من تجربة هزيمتها في حربها بالهند الصينية، وقامت بتطبيق خطط جديدة في مجال الحرب النفسية، بهدف عزل الشعب الجزائري عن ثورته، وأصدرت تعليمات خاصة بأساليب هذه الحرب وتبني علاقات جيدة مع الجزائريين المسلمين والقيام بحملة دعائية حول الإصلاحات المزمع القيام بها لصالح السكان والتشكيك في هذه الحرب واعتبرت أن العمل العسكري وحده غير كاف، فلا بد من عمل نفسي، لذلك قامت بإنشاء مصلحة للعمل النفسي والاعلامي في شهر مارس 1956 على مستوى قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر[(44)].

و قامت الحكومة العامة في الجزائر بإنشاء مصالح الاستعلامات لمختلف أسلاك الأمن بالعمالات والدوائر ووحدات الدرك الفرنسي من أجل تتبع حركة الثورة، أما في مجال التأثير على السكان المسلمين قامت بإنشاء مصالح إدارية متخصصة، حيث تواجدت بمنطقة الظهرة العديد من هذه المخافر، التي لعبت دورا بارزا في التأثير على الجزائريين في التعاون مع السكان وعملائها في التقرب منهم وتوفير العمل لهم والمساهمة في الخدمات الاجتماعية والطبية ونشر أكاذيب دعائية ضد جبهة التحرير الوطني من خلال وحدة مكبر الصوت وإلقاء المناشير على الأرياف وسكان المدن وتبليغهم بالمستجدات، و لعبت هذه المصالح دورا خطيرا في التأثير على سكان المنطقة وحاولت توضيح القانون الإداري الخاص بالانتخابات

والإصلاحات المختلفة والرد على مناشير جبهة التحرير؛ وتطرقت هذه المصالح في منطقة مستغانم إلى أهمية المصالح الإدارية الخاصة SASو قللت من تأثير الأزمة الوزارية على السكان وقامت من جهة أخرى بتفنيد الدعاية المضادة، مقدمة معطيات عن الأوضاع في الجزائر، بأنها بخير وأن الجيش الفرنسي يحقق انتصارات على جيش التحرير، وهي في نظرنا مناورة الاستعلامات العامة الفرنسية، التي حاولت بث الفرقة بين السكان؛ بسبب تزايد صدى الثورة، إذ لا بعقل مجيء كتيبة عسكرية من المجاهدين بأسلحتها الثقيلة إلى منطقة الظهرة بدون إسناد شعبي [45].

وقامت مصالح الحرب النفسية الفرنسية باستخدام طرق جديدة، تمثلت في إنشاء فرق متخصصة تدعى " القوة الفرنسية "، و قللت من مخاوف السكان الأوربيين وكانت جرائم هذه الفرقة سوداء على نشاط جيش التحرير حسب اعتقاد التقارير الأمنية الفرنسية، ويرجع ذلك في نظرنا إلى أساليب البطش والتعذيب التي بات يتعرض لها المقبوض عليهم وترويع السكان المسلمين ومنع تسرب الأسلحة نحو الثوار من المغرب وتونس .و في نفس الوقت قامت هذه المصالح بمحاربة الدعاية وتوزيع استبيان على سكان المنطقة، ولنقل استجوابهم من خلال هذه الأجهزة؛ حيث طرحت عدة أسئلة على السكان الأوربيين المثقفين، الذين كانوا واعيين بما يدور عند الساسة الفرنسيين والقادة العسكريين وطالبوا بإجراءات صارمة، أما غير المثقفين المسلمين فقد نجحت الدعاية معهم لأنهم واثقين من السياسة الفرنسية من خلال أجوبتهم العمومية، وهي غير دقيقة حسب هذه المصالح لأنها لا تعكس نواياهم الحقيقية وقد تأثروا بحملة الدعاية الفرنسية، أما المثقفون المسلمون، فهم واعون بمختلف مشاكل المسألة الجزائرية وأحداثها وطرحوا وجهات نظر هم في حل هذه المسألة .و استخدمت أيضا هذه المصالح الحرب النفسية، من خلا وسائل الاعلام الحديثة مثل الراديو" التي أصبح لها تأثير بالغ على السكان من خلال إذاعة "صوت البلاد" والمنشورات والصور والتجمعات وإطلاق الإشاعات بهدف التقليل من دعاية جبهة التحرير وإعادة الأوضاع إلى نصابها، وبالتالي كان لنشأة هذه القوة الدعائية تأثير بالغ على السكان حسب هذا التقرير[4].

وفي سياق الحرب النفسية التي كانت تقوم بها هذه المصالح، وردت عدة شهادات لمجاهدين أحياء عايشوا هذه الحالات من تأثير وسائل الإعلام الخطيرة والارهاب النفسي على السكان المسلمين [47] من خلال تزوير بيانات جبهة التحرير والقضاء على خلايا جبهة التحرير من الشبه المدنيين التابعة للثورة بالدواوير من خلال وضع عملاء لها من الجزائريين ووضع قلاع حراسة منهم لحماية الدوار من نفاذ المجاهدين إليه والتبليغ بالمؤيدين للثورة بهذه المناطق، ذلك ما تناولته حصة تلفزيون النهار الجديد الجزائري في منتدى المجاهد بحضور بعض مجاهدي الولاية الرابعة، بتأكيدهم على الأساليب الفرنسية التي فرضت على الجزائريين بتكوين مجموعات قتالية مناوئة لجيش التحرير في مناطق عديدة من الجزائر لفصل الشعب الجزائري عن الثورة [48].

ب – جرائم فرنسا بالمنطقة انتقاما من نشاط جيش التحرير

حاولنا تتبع النضال البطولي لمجاهدي المنطقة، الذين قدموا تضحيات جسيمة، فمنهم من استشهد ومنهم ما زال حي يرزق، يتذكر جرائم فرنسا خلال عمليات التعذيب والاستنطاق ومحاصرة المناطق وإقامة المحتشدات العسكرية ومراكز تجميع السكان، وتجاوزت أجهزة الاستعلامات كل الأعراف الدولية في مجال حقوق الانسان والمساجين واعتبرتهم مجرمين بدون محاكمة، و ارتكب الجيش الفرنسي بالولاية الخامسة ومناطقها المختلفة، منها المنطقة الرابعة، جرائم حرب وانتهاك القانون الدولي، بمعنى "جريمة حرب هي المخالفة التي يعاقب عليها القانون الدولي والتي يتم ارتكابها خلال فترة العداء ضد أفراد معنيين أو ضد المجتمع الدولي ومنها عدة شروط [49]:

"- الانتهاكات المختلفة لقوانين وأعراف الحرب من جهة ولما تعارفت عليه الأمم المتحدة في حروبها ومن جهة ثانية فهي كذلك تشمل القتل – المعاملة السيئة لأسرى الحرب – ترحيل وتهجير المجتمع في المحتشدات ... ".

و في هذا الإطار، قامت الإدارة الاستعمارية بالبلدية المختلطة كساني، ببناء معتقل **الكريال** الذي أضحى يطلق علية معتقل الموت، بزج جميع المشتبه فيهم بهذا السجن الفظيع الذي كان مقبرة حقيقية لكل زواره وتعرض السجناء لأنواع عديدة من أساليب التعذيب، حيث حوّل فيما بعد إل متحف للمجاهد، يستنطق التاريخ من خلال ما تركه الاستعمار من آلات التعذيب ومقرات السجن والاعتقال، حيث يعتبر شهادة حية للأجيال الحالية والمقبلة عن فضائع وجرائم جيش الاحتلال الفرنسي بالمنطقة .

وقد عرفت منطقة الظهرة هذه الانتهاكات بهدف قمع حركة التمرد في نظر الجيش الفرنسي، فمن خلال تقارير الأجهزة الاستعلاماتية الفرنسية، تعترف بحدوث هذه التجاوزات عندما يتم القبض على المجاهدين وإقامة المحتشدات لسكان الأرياف ومراكز الاستنطاق لكل المشيبه فيهم والسجون المظلمة، بهدف منعهم من الاتصال بالثورة، التي تحدث عنها المجاهدون الذين بقوا فيها لمدة طويلة في ظروف غير إنسانية لا تطاق، حيث استشهد العديد من سكان المنطقة فيها، حيث يذكر الباحث " أحمد منقور" في دراسة له عن مواقف الرأي العام الفرنسي والمحللين السياسيين آنذاك :"يرى المحللون أن الجيش الفرنسي قد أقدم وتورط في الحرب في الجزائر بشكل مباشر منذ سنة 1956عندما تمت الموافقة على قانون السلطات الخاصة « Loi Cadre » التي منحت الدور الريادي للجيش الفرنسي على هذه المستويات [50]. حيث نعتقد من جهتنا، بأن فرنسا الاستعمارية وظفت جميع الإمكانات المتوفرة لديها، لإنهاء حركة الثورة بلجوئها إلى ترهيب السكان والانتقام منهم، لأنهم في نظرها متورطين مع المجاهدين ؛ لذلك استخدمت جميع الأساليب القمعية ضد السكان المدنيين، لأنه ببساطة لم تستطع مواجهة الأبطال المجاهدين الذين كانوا ينشدون الحرية والاستقلال.

لقد اكتشفت أجهزة الاستعلامات لمنطقة الظهرة، تقارير هامة باللغة العربية لدى المجاهدين المقبوض عليهم وقامت هذه المصالح بترجمتها ونشرها على شكل تقارير مرسلة للسلطات العليا في المنطقة الرابعة،

يروي من خلالها هؤلاء المجاهدين وقائع لعمليات القمع والتعذيب الممارسة ضد سكان المنطقة، و ورد أيضا في هذا التقرير ما يلي [51]:

"قيام جيش الاحتلال الفرنسي ببناء معتقلات ثأرية مشابهة لتلك المعتقلات التي أقيمت أيام الحرب العالمية الثانية ضد الفرنسيين، من خلال ما يجري حاليا أثناء الثورة التحريرية بإنشاء المحتشدات العسكرية لمجموعات سكانية وعزلها عن محيطها " ويضيف التقرير، بأنه تم إنشاء محتشد أو معتقل بالقرب من كل موقع عسكري ويوجد بهذه المعتقلات دار للتعذيب والاستنطاق للسكان المدنيين من خلال حملات المداهمة واستخدام وسائل تعذيب غير إنسانية مثل التعذيب بواسطة الكهرباء والحوض المائي واستخدام قارورات زجاجية والضغط على المستنطقين بأسئلة تطرح عليهم منها :

- هل رأيتم الفلاقة " – ما علاقتكم بهم إلخ...، فيطلق البعض ويزج بالأغلبية في معتقلات ومواقع الأشغال الشاقة موثقين بسلاسل للعمل في مزارع المعمرين وبغذاء ناقص يحفظ لهم البقاء على قيد الحياة فقط، كتوزيع خبزة واحدة على أربعة سجناء، وبالتالي كانت الأجهزة القمعية الفرنسية، تهدف من خلال هذه الأعمال، الانتقام من الشعب الجزائري بتحميله ؛دفع ثمن نشاط جيش التحرير في مناطقهم.

و من هذا المنطلق، تعرضت منطقة الظهرة لعمليات بشعة، غير إنسانية ضد السكان الجزائريين لسبب رئيسي، تمثل في نشاط جيش التحرير بمنطقتهم والانتقام منهم، لأنهم في نظر الإدارة الاستعمارية وأجهزتها الأمنية المختلفة متواطئون مع ثوار جيش التحرير الوطني، حيث شكلت معركة سيدي الزقاي نموذجا حيا لتضامن سكان المنطقة مع ثورتهم من خلال شهادة المصادر الفرنسية نفسها من مراسلات وكتابات صحفية سبق لنا الإشارة لبعضها .

خاتمة

شهدت منطقة الظهرة، اندلاع الثورة التحريرية بجدارة في الفاتح نوفمبر 1954و كانت ناجحة رغم قلة الإمكانات وتمركز عدد كبير من المعمرين، بسبب تواجد أحزاب وطنية نشيطة بالمنطقة ؛ مما أدى بشباب المنطقة إلى الالتحاق بالعمل الثوري، وتجلى لنا ذلك من خلال عشرات الشهادات لمجاهدي المنطقة، و أيضا كم هائل من الوثائق الأرشيفية المتواجدة بدور الأرشيف الفرنسية والجزائرية، التي سمحت لنا بالإطلاع على النشاط الثوري بالمنطقة .

وكذلك صحافة المعمرين وجريدة المجاهد لسان حال جبهة التحرير الوطني، قدمت لنا معلومات غنية بأحداث المنطقة ومعاركها الكبرى ما بين 1954 و1956، وبالتالي فمنطقة الظهرة الواقعة في تراب عمالة مستغانم سابقا ببلديتها المختلطة **كساني** وببلدياتها الكاملة الصلاحيات (**بوسكي وبون دي شلف**)و المناطق المجاورة لها بولاتي غليزان والشلف حاليا، كانت مع موعد فجر جديد من أجل ربح معركة الاستقلال ؛رغم الظروف الصعبة التي عايشها سكان المنطقة من خلال عمليات القتل المبرمج والاعتقالات التعسفية في معتقل **الكريال** والمحتشدات الخاصة بتجميع سكان المنطقة في مراكز أمنية شديدة الحراسة بهدف منع الجزائريين من الاتصال بالثورة وكبت الروح التحررية لدى الجزائريين .

الهوامش

1 - -Carlier (Omar),<Le 1[er] Novembre1954 a Oran , Action Symbolique , Histoire Périphérique et Marqueur, Histographyque > in « la Guerre d'Algérie, 1954-1962 Présente Par Ageron (Ch A), ed, Armand Colin, C .R.N.S, Paris,1996 ,pp.8 -9

2 – بلحميتي بن ذهيبة، مجاهد من منطقة سيدي علي ولاية مستغانم، كان عضوا بارزا في حركة الانتصار والمنظمة الخاصة بالمنطقة، رفيق بن عبد المالك رمضان، وكان من مفجري الثورة بالمنطقة، أنظر الحوار الذي أجرته معه مجلة الظهرة لولاية مستغانم، نشرية شهرية،

نوفمبر 2003، ص ص 10-11

3- محمد بليل : " اندلاع الثورة التحريرية بعمالة وهران في الفاتح نوفمبر 1954، التحديات والصعوبات " مجلة المصادر، دورية سداسية تصدر عن المركز الوطني للحركة الوطنية والثورة التحريرية، المنظمة الوطنية للمجاهدين الجزائر، العدد 24 السداسي الثاني 2011، صص 196-218

-Echo D'Oran , 02 /11/1954 4

5- بلحميتي بن ذهيبة، مصدر سابق ص ص10-11

6-Carlier (O), op cit,p p 12 -13

7 –Bernard(Michel), Histoire du Drame Algérien ,T1, 1954- 1956, ed Gremille , Genève , 1971, p 75.

8- Centre D'Archives D'Outre Mer, Archives Nationale d'Outre Mer (CAOM)ou(ANOM) , boite N° 81 F /878 Rapport sur la Situation de L'Ordre publique en Algérie N°42 .914 , Alger le 07/11/1954coréspondance du G.G de L'Algérie A Mr le Ministre de l'intérieure

9-CAOM,B, N° cab 10/54, gouvernement Général de L'Algérie : « les Evénements de l'Algérie ,discours et Allocution de Mr Roger Léonard A L'assemblée Algérienne, pp, 2-10 Novembre 1954, imprimé officielle, Alger.

10- ibid, discours du vanjour , pp11 -25

11 – بلحميتي بن ذهيبة، مصدر سابق، ص 11

12- Quotidien(L) Oran, 1[er] Novembre 2008

13- CAOM boite N°10cab/54 ,Préfecture d'Oran ; Rapport du SLNA N°736

14- العماد طلاس مصطفى والمقدم بسام العسلي، الثورة الجزائرية، دار الشورى بيروت، ط1، 1982، ص 86.

15- محمد بليل، حصة إذاعية بمحطة مستغانم، حول الذاكرة الوطنية، في حصة خمسون في اثنان وخمسون من إعداد الصحفي بوعبد الله مروان قدمت بتاريخ 2012/07/05 (الأرشيف الصوتي لإذاعة مستغانم) .

16 – Historia Magazine « L'A.L.N, Armée De Libération Nationale , une Rébellion ,Souscrira »,N°201,10Novembre,1971p 226-234.

17 -Carlier (O), op cit ,p 13

18- بلحميتي بن ذهيبة في مجلة الظهرة، مرجع سابق صص 10- 11

19-Bernard(M), op cit,p p , 105-106

20–العماد طلاس مصطفى والمقدم العسلي بسام، مرجع سابق، ص 228.

21 – محمد بليل، ندوة تاريخية بثانوية سيدي علي في 31 أكتوبر 1994 بحضور مجاهدين منهم الزروقي بومهدي وبلحميتي محمد

22- بلحميتي بن ذهيبة :"مجلة الظهرة "، مرجع سابق صص 10-11

23- (CAOM) , boite N°10 cab /54 , gouvernement de L'Algérie d'après le document social , périodique N° 1 , L'Algérie en 1954

24-ibid , Rapport adressé par le commissaire divisionnaire d'Alger au Préfet d'Alger , le 07/11/1954

25 –CAOM, B ; N°//167 , la Rébellion a Mostaganem , des Rapports des renseignements Généraux

-Echo d'Oran , sept 1956**26**

27 – الغالي الغربي، فرنسا والثورة الجزائرية 1954 – 1958، دراسة في السياسات والممارسات، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، صص 389 – 390

28- CAOM , Série Continué , Département D'Oran , Boit N° //149, Etude sur la Rébellion à Mostaganem

29 – الغالي الغربي مرجع سابق، ص 392

30 - CAOM , Boite N°7G/1009,bref Exposé sur la Rébellion et son Evolution

31 – شهادة المجاهد بن عبدالله نعماوي خلال المعارك بالظهرة، حوار معه في بيته بتاريخ 2012/09/08

32- CAOM boite N° // 149 département d'Oran

33-CAOM ,B N°// 150 département d'Oran ,

34 -حصة إذاعية،حول الذاكرة التاريخية، خاصة بمعركة سيدي الزقاي بالقشاقشة بسيدي علي (كساني) بقيادة محمد الجبلي ليوم 2012/09/15 (الأرشيف الصوتي لإذاعة مستغانم)

35- شهادة نعماوي بن عبد الله (مصدر سابق) وأيضا الحاج كياس، منار الوالي الصالح في تاريخ سيدي علي، د.ت، ص90 (موجود بمكتبة متحف المجاهد ببلدية سيدي علي) .

36- المرجع نفسه، ص86

37- CAOM ,B,N°//150 rébellion à Mostaganem ;Rapport SLNA,C.V du Bouhassoun qui a héberger djebli

38-Echo d'Oran 16-17 , sept 1956

39-ibid

40- حوار مع المجاهد نعماوي، مصدر سابق

41 - حوار مع لخضر فيزاري في بيته،09 سبتمبر 2012.

42-Echo d'Oran,20 sept 1956

43 -محمد بليل:" محرقة غار الفراشيح بأولاد رياح من خلال المصادر الفرنسية " مجلة مصادر الجديدة، العدد السادس، صيف 2012، صص 53-69

44 – الغالي الغربي، مرجع سابق، صص 158 – 159

45- Service d'archive de la Willaya de Mostaganem , boite N° 105 , Concernant les SAS , Leurs Objectives et Rôles dan la willaya 5

46-ibid

47-شهادات مجاهدي المنطقة أمثال نعماوي بن عبد الله، مصدر سابق

48- حصة تليفزيونية " منتدى المجاهد " بنهار تفي TV، يوم 2012/08/12، على الساعة 12سا و30 دقيقة، بتطرق الحصة للحرب النفسية الفرنسية المستخدمة ضد جيش التحرير الوطني .و انظر ايضا، الغربي الغالي، مرجع سابق، صص 165 – 185

49- علي نهار، من جرائم الجيش الفرنسي في بعض مناطق الولاية الخامسة خلال الثورة التحريرية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس 2010ص 6

50 – أحمد منغور، مواقف الرأي العام الفرنسي من الثورة الجزائرية 1954 – 1962، دار التنوير، الجزائر، 2008، ص154

51 – CAOM , Boite //149 , département d'Oran , des Rapport du FLN Sur la Torture et les Centres et Camps d'Hébergements